مقدمة

حين أخذ العلم ، فى القرن التاسع عشر ، يتقدم بخطى جبارة ، وأخذت الصناعة تستفيد من تطبيقاته على نطاق واسع ، وتؤدى إلى نتائج باهرة ، طغى على كل شىء سواه ، واستأثر بإكبار الناس من دون غيره من أنواع النشاط الإنسانى. وكأنما خجل الفن من نفسه فأخذ يلملم أذياله لينسحب إلى ركن بعيد ، وكأنما لحقت به فلول أنصاره تعزيه وتعزى نفسها ، وكأنما راودها شك فى قيمة نفسها ، وصارت تستحى أن تستعلن للناس ، فأصبحت كلمة « الفنان » تثير فى خيال جمهرة الناس ، من أتباع الحاكم الجديد ، أو قل من عبدة الإله الجديد ، صورة الرجل الساذج المتعلق بالأوهام ، المفتون بالأحلام ، حتى قال رينان : « سيأتى يوم يكون فيه الفنان شيئاً بالياً غير ذى جدوى ، أما العالم فقيمته تزداد يوماً بعد يوم » ، بل إن رينان نفسه ليأسف على أن لم يكن عالماً .

غير أن هذه النظرة الجديدة إلى الفن ليست الشىء الجوهرى فى الأمر ، فالقضية فى نظر بعضهم ليست قضية تنافس بين العلم والفن انتصر فيه الأول على الثانى فى حقبة من الزمن ، ثم يكون فى وسع الآخر أن يحشد قواه ويكسب الأنصار ، ويدخل المعركة من جديد . فالأمر أعمق من هذا . إن العلم والفن فى رأى بعضهم لا يمكن أن يوجدا معاً . فالأول ينفى الثانى ويمنع عنه الحياة ، لأنه ، بالنور الذى سلطه على الكون ، قد بدد الضباب الذى يعيش الفن من غموضه ، وأزال الأسرار التى يستمد منها الفن غذاءه . إن الشعر الحق لا يكون من غير أسرار ، كما يقول الألمان على لسان شلنج وشتراوس وفاجنر ، ولا يعيش بدون أوهام ، كما يقول جوته[1] . لاغنى للخيال الشعرى عن شىء من الوهم. فما تُفسَّر الوقائع بأسبابها الباردة ، ولا غنى له عن شىء من الضباب يغشى الأشياء فيكسبها روعة السر وفتنة المجهول . أى شعر فى الطريق الواسع اللاحب الذى لا ثنايا فيه ولا منعطفات ، تنصب عليه الشمس فتنيره كله ، فما نرى فيه أثراً لظل ، نلج أوله ونحن نرى آخره ،

---

(١) راجع كتاب جان ماري جويو « مسائل فلسفة الفن المعاصرة » ، ترجمة الدكتور سامى الدروبى ، ففيه عرض واف لهذه المشكلات .

فما يفاجئنا فى أثناء سيرنا أى شىء لا نتوقعه ؟ .. أما الجمال الشعرى فى الآجام والغياض ، وفى زوايا الظل وكل مالا تراه الأعين من أول لحظة . أنت لا يستهويك السهل العارى لأنه لا يخبئ عنك شيئاً ، ولا تحب الطريق المستقيم لأنك بنظرة واحدة ترى كل ما فيه . ما كان المساء جميلا إلا لأنه يسدل على الأشياء غشاء رقيقاً ، وما كان ضوء القمر الشاحب بأجمل من نور الشمس الساطع ، إلا لأنه نور خفيف فما يفضح الأشياء التى ينصب عليها ، بل يخبئها بغشاوة ناعمة ، ويحيطها بشىء من الغموض الهادئ . والمرأة التى حجبت جسدها بغلالة شفافة أكثر فتنة من امرأة كشفت عن جسدها وتبدت عارية . كان موسيه يضرع إلى ربه أن يحطم قبة السماوات ، ويرفع حجب الكون ، ويظهر له . . . . ولكن . . . تُرى لو استجاب الله لدعوته ، أكان يظل إلهاً ، وكنا نظل نعبده ؟ كذلك تساءل أحدهم يوماً ! هل يميز السماء عن الأرض التى نطؤها بالأقدام ، إلا أننا حين ننظر إليها لا نرى شيئاً واضحاً ؟ ماذا يبقى من جمال النجوم ، هذه الأزهار المعلقة فى السماء ، أو هذه المصابيح التى زين الله بها السماء ، إذا كنا حين ننظر إليها لا نذكر من أمرها غير أنها كتل هائلة من صخر ومعدن ونار ؟ ماذا يبقى من جمال اللحن ، إذا كنا حين نستمع إليه لا نذكر من أمره إلا أنه اهتزازات فى الهواء تجرى وفقاً لوزن معين ؟ ماذا يبقى من جمال الزهرة إذا كنا حين نلقى عليها البصر لا نذكر إلا أنها وغيرها من سائر الأزهار وكافة الموجودات الحية مركبات شتى من آزوت وفحم وماء ؟ . .

إن العلم باكتشافه قوانين الطبيعة يجعلك تطل عليها من فوق ، فترى آليتها بوضوح ، وتتنبأ بما سيجرى فيها ، وبهذا تقتل الفن ، لأنك تقضى على المفاجأة ، وجمال المفاجأة كل الجمال . فعالم الفن يجب أن يكون عالم ضباب ، يحجب عنك الآفاق ، إلا ما وقع منك على خطوات ، فكلما خطوت خطوة ودّعت شيئاً لتستقبل شيئاً آخر . فما تفارقك لذة الاكتشاف لحظة ، وتكون دنياك متجددة باستمرار . أما الجو الصاحى المشمس ، فإنه يطلعك على كل ما ستلقاه أمامك بنظرة واحدة ، فتسير وتسير من غير أن تجد فى أثناء سيرك ما يلفت انتباهك . أسعد منك النملة ترقى حصى أو تتسلق ورقة ، لكى تطل على مشهد لا يتجاوز نصف

القدم ! إنها تميز كثيراً من الأشياء الرائعة التى لا تراها أنت . إن فى ممرها المحصب ، وعشبها القليل ، وقشرة الساق التى تتسلقها ، لشعراً نجهله نحن كل الجهل ؛ وسرعان ما يتبدد هذا الشعر إذا وُسِّع أفقها ، وانبسطت أمامها الأرجاء. إنها تعيش فى مثل الضباب : فى كل خطوة تخطوها تنسى شيئاً لترى شيئاً آخر ، أما نحن فبالعلم نطل على العالم من فوق . فنراه رؤية إجمالية : تزول التفصيلات الدقيقة واللوينات الناعمة ، وتُردم الفجوات الصغيرة التى يتغلغل فيها الفكر ، وتستقيم المنعطفات التى تثير فينا حب الاطلاع ، فإذا المشهد عار ، عام ، ليس فيه ظلال ولا تعاكس أضواء ، ولا تداخل أنوار : نور ساطع متجانس ، منصب على سهل لاحب . منظر بليد .

وإذا كان العلم لم يبلغ حتى الآن من النمو ما يجعله يقفك على الكون من عل فترى آليته بوضوح ، وما زال فى الدنيا جوانب لم يسلط عليها النور ، فهى ملفعة بالضباب منطوية على الأسرار ، فهذا إرجاء للمشكلة وليس بحل ، وكل ما نستطيع أن نستخلصه منه ، هو أن للفن بقية من عمر هى المدة التى يستغرقها نور العلم حتى يصل فى سيره — وما أسرع سيره — إلى أبعد الآفاق . فما أقصرها إذن مدة ! وهَبْها طويلة فهى محدودة على كل حال ، ما يلبث الإنسان بعدها أن يحيط بالكون ، ويعى حقائقه ، وهذه الحقائق سائرة فى طريق التبسط ، حتى لقد رأينا بعض الفلاسفة يحلمون بردّ القوانين إلى قانون واحد بسيط ، وتفسير الوجود كله بمبدأ واحد بسيط أيضاً . انظر إلى علم النفس ، مثلا ، والنفس هى المجال المفضل الذى تطوف فى ثناياه بصائر الفنان ، وتقوم عليه المأساة والملحمة والشعر والقصة والموسيقى والغناء وسائر الفنون ، وانظر إلى هذه النظريات الحديثة التى تحاول أن تفسر مختلف العواطف الإنسانية ، والأعمال البشرية بمبدأ واحد ، كالليبيدو عند فرويد مثلا . إن جميع تلك العواطف التى سبرها شكسبير فكان « هملت » ، ونفذ إليها دوستويفسكى فكانت « الجريمة والعقاب » ، إن جميع هذه العواطف ترد إلى مبدأ واحد هو الغريزة الجنسية ، فما تكاد تسلط نور هذا المبدأ على ما يضطرب فى أعماق الإنسان حتى تنحل كل العقد وتتبدد كل الأسرار . وها هنا إذن جبر . وكل شىء يجرى بمقدار ، فلا مفاجأة ولا حرية ولا بطولة ، فكيف

تستطيع أن تنظم المأساة ، وتؤلف الملحمة ، وتغنى الحب ؟ . .

تلك هى المشكلة فى نظر الرومانطيقيين الحالمين ، وهذه همومهم ، ولو نظرنا إليها عن كثب لوجدناها قلقاً مما لا يستدعى القلق . اهبط من عالم تفكيرك هذا ، وانظر إلى الواقع الحى ، فماذا ترى ؟

هل استطاع العلم فى الواقع أن يحول دون سير الفن ، بل دون تقدم الفن ؟ هل استطاعت تحليلات نيوتن للنور أن تزيل جمال قوس قزح ؟ هل استطاعت الأبحاث العلمية فى الصوت أن تجعلنا لا نطرب لألحان بتهوفن ؟ أنت تنظر العين الناعسة ، فهل تذكر من أمرها حينذاك أنها مركبة من عدسة بلورية ، وطبقات ثلاث هى الشبكية والمشيمة والقرنية ؟

إن هذا الكتاب يعالج جزءاً من المشكلة الكبرى التى بسطها ما سلف من هذه المقدمة . فليس موضوع الكتاب أن نبحث العلاقة بين العلم كله من جهة ، وبين الفنون والآداب جميعها من جهة أخرى ، وإنما موضوعه أن نبحث العلاقة بين علم النفس والأدب . لسوف نتساءل ضمناً أو صراحة : هل هناك صراع بين علم النفس والأدب ؟ وما مصير الأدب وسط هذا الطوفان الزاخر من « العلوم » السيكولوجية التى تدرس ما كان الأدب ، هو وسائر الفنون ، يتولى دراسته من قبل ، أعنى الإنسان ؟ ثم نمضى إلى أبعد من ذلك فنتساءل : هل علم النفس هو الذى يعرف النفس حقاً ، فيكون بديلا للأدب وسائر الفنون ، أو أن للأدب وظيفة غير وظيفة علم النفس ، هى معرفة بالنفس أعمق وأنفذ وأصدق من المعرفة التى يمدنا بها علم النفس . ولسوف نخلص إلى أنه لا تعارض بين علم النفس والأدب ، فعلم النفس علم بالكليات كسائر العلوم ، والأدب معرفة بالمفردات كسائر الفنون . ولا ضير كذلك على الفن من العلم ، فلكل منهما غاية تختلف عن غاية الآخر ؛ هذا معرفة كلية تفيد الحياة ، وذاك معرفة عميقة بالمفردات تلبى الشوق إلى المعرفة الصادقة النافذة .

فليست سيكولوجية الخلق الأدبى موضوع هذا البحث ، وإنما موضوعه العلاقة بين علم النفس والأدب ، ومن يكن موضوعه العلاقة بين علم النفس والأدب ، فهو واقف فى داخل علم النفس وفى داخل الأدب معاً ، ولكنه واقف

كذلك فى خارجهما ، لأنه لا يستطيع إلا أن يتجاوز أفقيهما إلى أفق ثالث ينظر إليهما منه . ولقد كان هذا الأفق الثالث الذى انتقلنا إليه هو الأفق الفينومينولوجى . كنا فى هذا البحث فى نقلة لا تنقطع بين علم النفس و بين الأدب ، و بين فينومينولوجيا الإبداع الفنى والأدبى . والفكرة الأساسية التى خلصنا إليها ، حين فرقنا بين المعرفة السيكولوجية والحدس الأدبى من حيث إن الأولى علم بالكليات ، ومن حيث إن الثانى رؤية للأفراد وهم منخرطون فى « مصير » ، هى التى قادت خطانا إلى التعرض لدراسات فى سيكولوجية الأديب والأدب ، ذلك لأن بعض علماء النفس أرادوا — فيما أرادوا — أن يردوا تعلق الأديب بالقيمة الأدبية ، ينبوع إبداعه ، إلى عوامل كان لا بد أن نوضح أنها عاجزة عن تعليل ما تريد تعليله ، وأرادوا فيما أرادوا أن يدرسوا شخصية الأديب من خلال آثاره دراسة كان لا بد أن نعرف بأنها مفيدة و إن لم تكن هى الكلمة الأخيرة .